الفرصـــة حدودها ومنزلتها في القرآن الكريم

د. حسن بن صالح الحميد

أستاذ مساعد

المعهد العالي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر –قسم الحسبة–جامعة أم القرى

الملخص

هذا البحث محاولة لتتبع الفرص الإلـــهية التي أنعم الله بها على عباده وجمع ما يتعلق بها في ثنايا النصوص القرآنية، وإبراز معانيها، ودلالاتها ومتعلقاتها وأنواعها، للاســتفادة منها واســتثمارها بطريقةٍ صــحيحة تُثمر نتائج إيجابية في معالجة كثير من نواحي الضــعف والقصــور الناتجة عن إهمال الفرص أو توظيفها بطريقة خاطئة. باعتبار أن حقيقة الفرصــة تتمثل في الحصــول على ما ينفع الإنســان في دنياه وآخرته، والتخلص مما يضـر في العاجل والآجل خلافاً لنظر كثير من الناس لمفهوم الفرصة.

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن السائح المتأمل في النصوص الشرعية عامةً، وفي كتاب الله بوجه خاص يجد في فضائها المترامي موضوعات هي من الأهمية بمكان لم يُقدّر لها أن جال حولها الخاطر، كحال كثير من الموضوعات البارزة الظاهرة. ومن تلك المواضيع التي لم تدرس بتوسع مع قربها للمتأمل موضوع "الفرصة" التي هي "كل ما يتاح للإنسان ويهيأ له على جهة الإنعام أو الاختصاص والتفضيل مما يمكن انتهازه دون الالتفات إلى نسبة الإفادة منه". هذه الفرصة بهذا المعنى الأعم لم يتيسر تتبع معناها ومنزلتها في كلام الله. وربما كان ذلك لاستتار فوائد معاني هذا الموضوع خلف متناثر النصوص، وهذا ما دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع وسميته (الفرصة حدودها ومنزلتها في القرآن الكريم).

منهج الدراسة

منهج الدراسة وصفي تحليلي، من خلال تتبع آيات الكتاب العزيز، وإبراز مَنزِع الفرصة فيها، ووضعها موضعها في نسيج البحث. ثم محاولة استثمارها في معالجة الأدواء والمشكلات التي يظهر لي أن إهمال الفرصة أو توظيفها بطريقة خاطئة كان سببا فيها، مؤيداً بالشواهد والأدلة، بما يتسق مع طبيعة هذا البحث الوجيز.

حدود الدراسة

تتمحور الدراسة حول رؤية القرآن لمعنى الفرصة العام، ثم الانبساط شيئا في دراسة الفرصة الدنيوية ومنزلتها بصفة أخص، من خلال إيماءات النصوص، مع التعرض للمتعلقات الرئيسة لتلك الفرصة، مشفوعة بالاستئناس بكلام المؤدب الأول صلى الله عليه وسلم، وما ورد من إشارات في كلام أهل العلم والحكماء والشعراء من غير استيعاب، ثم ما جاد به الخاطر من فهم واستنباط، من خلال الفهم العام للأدلة ومقاصد الشرع.

الدراسات السابقة

لم أقف على دراسة سابقة تناولت الموضوع بنحوٍ مما تناولته به، لا من حيث استخدام اللفظ، ولا من حيث مَنزِع الاستدلال، وإن كان مضمون الفرصة متناولا في سياقات أخر، كالحديث عن الأعمال الصالحة، ومدح المبادرة وذم التسويف، وبيان أهمية الوقت.. إلى أبواب أخر كثيرة عند التفصيل.

خطة البحث

سيكون هذا البحث في تمهيد وأربعة مباحث، وخاتمة

التمهيد: في تعريف الفرصة.

المبحث الأول: حقيقة الفرصة ومتعلقاتها وحدودها إجمالاً.

المبحث الثاني: الفرصة الدنيوية حقيقتها وأنواعها.

المطلب الأول: المقصود بالفرصة الدنيوية وأنواعها.

المطلب الثاني: ما هي حقيقة الفرصة الدنيوية هل هي نِعَمٌ مستحقة أم فُرصٌ يجب انتهازها ؟.

المطلب الثالث: الفرص الدنيوية النوعيّة.

المبحث الثالث: الفرص الدينية:

الخاتمة: وفيها أهم الفوائد التي تضمنها البحث.

وهذا أوان الشروع في المقصود، ومن الله أستمد العون.

التمهيد: تعريف الفرصة:

موضوع الفرصة بحثه ودراسته، هو في حد ذاته فرصة للوقوف على معناها الشامل وتطبيقاتها المتعددة، من خلال تتبع النصوص الشرعية ذات العلاقة بموضوع البحث [الفرصة] خاصة كتاب الله عز وجل، واستنباط المقاصد التي تومئ لها هذه النصوص، بحيث تبدو الفرصة وحدة موضوعية بضوابطها الشرعية، في نسق من التقعيد والتأصيل المستفاد من التتبع والاستقراء، والمستند على الحجة والدليل.

وقبل المضي في الحديث عن الموضوع ينبغي الوقوف على المعنى الدقيق لكلمة[الفرصة] لأن فهم الشيء فرع عن تصوره.

أولاً: الفرصة لغة:

(الفاء والراء والصاد) أصل صحيح يدل على اقتطاع شيءٍ عن شيء ومنه المِفراص للحديدة التي تقطع بها الفضة. والفُرْصةُ النُّهْزَةُ والنَّوْبةُ [والسين لغة] وقد فَرَصَها فَرْصاً وافْتَرَصَها وتَفَرَّصها أَصابَها. وقد افْتَرَصْتُ وانتَهَزْتُ. وأَفْرَصَتْكَ الفُرْصةُ أَمْكَنَتْكَ، وأَفْرَصَتْني الفُرْصةُ: أَي أَمكَنَتْني، وافْتَرَصْتُها اغتَنَمْتُها.

قال ابن الأَعرابي: الفَرْصاءُ من النُّوقِ التي تقوم ناحيةً فإِذا خلا الحوضُ جاءَت فشربت.

قال الأَزهري: أُخِذَت من الفُرْصة وهي النُّهْزَة، يقال وجد فلان فُرْصةً أَي نهزة، وجاءت فُرْصَتُكَ من البئر أَي نَوْبَتُك، وانتَهَزَ فلانٌ الفُرْصةَ أَي اغتَنَمَها وفازَ بها. فالفُرصة مما سبق تدل على اقتطاع شيء من شيء بمبادرة وخلسة، وجماع المعنى: اقتطاع شيءٍ بعجلة حسّيا كان ذلك الشيء أو معنويا.(١)

إذاً مدار التعريف اللغوي للفرصة على أمرين اثنين هما: القطع والانتهاز.

وقد عرف بعض القدماء الفرصة مضافة للانتهاز بهذا المعنى فقال:"وانتهاز الفرصة هو تحصيل المطلوب بسرعة، بحيث لو توانى لم يدرك المطلوب. وفسر بعضهم الانتهاز بالانتظار والفرصة بالقطعة من الزمن يدرك فيها مطلوبه ".(٢)

ثانياً: الفرصة في الاصطلاح: الفرصة في الاصطلاح الذي نعنيه: هي كل ما يتاح للإنسان ويهيأ له، على جهة الإنعام أو الاختصاص والتفضيل مما يمكن انتهازه، دون الالتفات إلى نسبة الإفادة منه. ويحتف بهذه الفرصة تكليف ومسؤولية مرتبطة بها بصورة مباشرة، يثاب منتهزها ثواباً زائداً على ما سواه، ويؤاخذ مفوتها إذا فرّط مؤاخذة زائداً على ما سواه فيها.

وواضح مما سبق أن الفرصة عارضة لا ثابتة، صعبٌ الإمساك بها، بحيث لا ينالها إلا قوي حازم، وأن الظفر بها مطلوب، لأنها متميزة عما حولها.

وقد تخيرت كلمة [الفرصة] للدلالة على مفردات هذا البحث، كونها كلمة جامعة فصيحة، معروفة بهذه الدلالة في لغة العرب. رغم كونها لم ترد بلفظها في الكتاب العزيز، كما لم ترد بلفظها ومدلولها الذي نحن بصدده في السنة أيضا -فيما أعلم. ولقد تأملت في الألفاظ الواردة فوجدت لكل منها دلالة مطابقة لسياق أو سباق معين. كلفظ الغنيمة، والمسارعة، والمبادرة. ونحوها. ووجدت كلمة الفرصة أقرب إلى المقصود، وأجمع لشتات الموضوع، إذ يندرج تحتها أصالة مالا تسمح به دلالات الألفاظ الأخر.

المبحث الأول: حقيقة الفرصة ومتعلقاتها وحدودها إجمالاً

وبادئ بدءٍ أقول وأعترف على نفسي أنني وجدت الفرصة بعد تتبعٍ واستقراء، أنها أكبر وأخطر مما كنت أتخيل. فلنستعرض في حقيقة الموضوع ولُبِّه بالقدر المفيد، حتى نكون على قدر مشترك في تصوّر ما نحن بصدده، يمكن أن نقرّب الفرصة ومتعلقاتها على النحو الآتي:

الفرصة من حيث هي، ومن حيثُ المانح لها، والجهة الممنوحة له، وزمان المنح ومكانه، وطرائق إيصالها، والوصول إليها.

فالخالق . جلّ وتعالى . هو المانح للفرصة، حيث اقتضت حكمته سبحانه إيجاد هذا الخلق، الجن والإنس. وجعل لهم نظاما وقانونا، قاعدته: التكليف ومنح الفرصة. وتفاصيله أوامر مطلوب منهم فعلها والإذعان لها، ومَنَاهٍ مطلوب منهم تركها واجتنابها، مع إعطاء الفرصة الكافية. ورتب – سبحانه – على هذا وذاك من صور الجزاء في الدنيا والآخرة ما يكشف التمايز والتباين بين منتهزي هذه الفرص، ومضيعيها، ويتجسد فيه العدل الرباني بإعطاء كل ذي

حق حقه، مكافأةً أو مؤاخذةً أو عذراً. قال تعالى: "**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**"(٨)(سورة الزلزلة).

وما سوى ذلك فضاءات واسعة هي المباحات، سواء كانت مسكوتاً عنها، أو مصرحاً بكونها فرصا اختيارية، على ألا تجور هذه المباحات على مأمور به أو تؤول إلى منهي عنه.

وهكذا تولى الرب ـ سبحانه ـ تحديد طبيعة الفرص المطلوبة والمحظورة في الحياة، بما أنزل في كتبه، وما بينته أنبياؤه ورسله عن أمره. فلا يحدد معالم الفرصة غيره. وأي مشاقة لأنبيائه ورسله في ذلك فهو عدوان على حقيقة الفرصة، وسوف يخلق مفسدة وضررا، وسيدفع سكان هذا الكوكب -أفرادا أو جماعات أو أمما-ثمن هذه المشاقة في الدنيا قبل الآخرة بصورة من الصور.

وترك لنا ـ سبحانه ـ مساحة وفضاءً واسعا من فرص الحياة في المسكوت عنه أو المأذون فيه، قال تعالى: "**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (١٣)** (سورة الجاثية). شريطة انسجامها ومقاصد الشرع الكلية، بحيث لا تجور على مأمور به، أو تفضي إلى منهي عنه.

ويجمع ذلك كله ويضبطه ما روي في الأثر عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلاَ تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا" وفي لفظ: "رُخْصَةً لَكُمْ لَيْسَ بِنِسْيَانٍ"**.[٣]

وكلما تمادى الناس في التخليط في حياتهم، كلما ضاعت معالم الفرص الحقيقية المشروعة، وتقلّب العالم في صور الفرصة، وليس حقيقتها، وغابت وضاعت الفرص الذهبية من بين أيديهم. لأن الناس لابد لهم في فرصة الحياة من فعل وحركة، وسباق ومنافسة، ولكن في أي الميادين، وتحت أي نظام وقانون ؟.

إن الحكمة الربانية قد اقتضت نظاماً إلهياً غاية في العدل، فرصةٌ مبذولة للجميع، حتى الشيطان لما طلبها أُعطِيت له "**قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ** " (١٥) (سورة الأعراف). مع أنه كان صريحا في برنامج العمل الذي سوف يُدير به هذه الفرصة "**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**" (١٧) (سورة الأعراف). وبالمقابل أعطى الله آدم وبنيه فرصة التخلص واختيار البديل الأفضل، ومكّنهم من أدوات المقاومة. مرّة بعد مرة. وهذا التكييف الرباني هو الذي أعطى الحياة قيمتها، ومنح الفرصة هذا البُعد والأهمية.

والفرص المحمودة باقية ما بقي الإنسان حياً. فـ**عن عمرو بن ميمون: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل: "اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك**"[٤].

بل تبقى الفرص المحمودة حتى بعد موت الإنسان. قال عليه الصلاة والسلام: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له"[٥].

وقال: "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ" (٦)

والفرص المذمومة كذلك. قال عليه الصلاة والسلام في تتمة الحديث السابق: ".. وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ ".

والفرصة القانونية هي ـ حصرياً ـ المتوافقة مع النظام الإلهي لهذا الكون، وهي الطريق الوحيد نحو تحقيق أكبر قدر من السعادة والأُنس في الدنيا، والاستمتاع الراقي المهذب فيها، واستخدام كافة الأدوات الممنوحة والمتاحة لتمكين الإنسان من خلق بيئة نظيفة متجانسة، ومدنية فاضلة راقية.

والفرصة بمعناها الأعم تشمل كل ما يتاح للإنسان ويهيئه الله له في الحياة، على جهة الإنعام والاختصاص مما يمكن انتهازه كما سلف في تعريفها، دون التفات إلى نسبة الإفادة منها.

وهي بهذا قد تنوعت من قِبل مانحها –عَزَّ وجلّ –مراعاةً لتنوع ظروف وأحوال من مُنحت لهم. وهذا التنوع يقف شاهداً على عظيم فضل الله ولطفه وعدله، ورحمته وكرمه، حيث أفسح المجال للإنسان في ميادين شتى، علّه أن تدركه وتشمله فرصة الفلاح الأبدية.

ومما يلحظ في تنوعها أن طابع اليُسر يتخلل عامتها، خصوصاً الفرص الدينية. ذلك لأن اليسر مقصد شرعي جليل أمر به الشارع، وجعل شرعه محققا له، ونهى عن ضده، وشدد على مراعاته، ليبقي باب الفرصة مفتوحاً للإنسان على الدوام. فأمر باليسر والقصد في العبادة، ونهى عن التنطع والتشديد.فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَهُمْ، أَمَرَهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ...".(٧).

ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ."(٨).

ويقول بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ".(٩)

وكم في كتاب الله من الآيات الصريحة في أن الله ابتدأ عباده بالتيسير عليهم، وحببه إليهم، ودعاهم إلى رحابه، وأخبر أن المشقة والميل عن سَنن اليسر هو سبيل أهل الشهوات. قال تعالى:" يرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا" (٢٨) (سورة النساء).

فمن تحامل على نفسه وحمل ما لا يطيق، عجز بعد حين عما يطيق.فقد رأى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ، "قَالَ مَا بَالُ هَذَا ؟" قَالُوا نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ قَال "إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ".(١٠)

فالمبالغة في اغتنام الفرصة على وجه لا يطاق منهي عنها، لأن في ذلك مشقة آنية، ومللاً وعزوفا فيما يَستقبل الإنسان بعد ذلك، مما قد يتسبب في قطع علاقته بالفرصة نهائياً.

قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: "لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ" مَرَّتَيْنِ." (١١)، ينهى عن ذلك، وينبه على تأذي فاعله ولحوق المشقة له. ولا يشفع له أنه كان صادقاً راغباً فيما عند الله، فإن الله أعلم بما يصلح الإنسان ويدخل تحت طاقته.

وهؤلاء الملأ من بني إسرائيل سألوا في حال السعة والتمني أن يقاتلوا عدوهم، وليسوا بفاعلين إذا كتب عليهم. قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" (٢٤٦)(سورة البقرة).

ومثل هذا ما جرى من بعض أتباع عيسى عليه السلام من الرهبان الذين ابتدعوا الرهبانية – تعبدا لله- فلم يرعوها حق رعايتها لما كتبت عليهم. قال تعالى: "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ"(٢٧)(سورة الحديد) " أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل".(١٢)

والرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المربي القدوة، كان له مع أصحابه جولات ومواقف، يتعاهدهم فيها ويردهم من الأطراف إلى الوسط، ويصحح لهم وللأمة وللبشرية جمعاء مواقع أقدامهم وموارد الفرص النافعة لهم. وأن كلا طرفي قصد الأمور ذميم. فمن ذلك: قوله عليه الصلاة والسلام لعَبْد الله بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا: "يَا عبدَ اللهِ: لاَ تَكُنْ مثْلِ فُلاَن! كَانَ يَقُومُ اللَّيلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ".(١٣) ينهاه عن تتابع الصوم المفضي إلى الملل والعجز عادة. وقد وقع ما حذّر منه الحبيب الرفيق صلى الله عليه وسلم. قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه — "فشددتُ فشُدِّدَ عليّ، قال: وقال لي النبي . صلى الله عليه وسلم .: (إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر)، قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي صلى الله عليه وسلم، فلما كبرت وددت أني كنتُ قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم".(١٤)

ومن المعلوم أيضا في سياق ما نحن فيه من اليسر في باب التعبد، وعلاقته بالفرصة، أن الاختلاف في نوع الفرص، وفي أقدار الناس، ومنازع أهل العلم في اختياراتهم وفُهومِهم.. أن ميزة ذلك عند ذوي الفقه هي إعطاء الفرصة للإنسان أن يختار منها ما يتناسب وطبيعته وظروفه تحقيقاً لقاعدة اليسر، والتي من شأنها أن تكسب عمل الإنسان نوعاً من الاعتدال والاستدامة." فأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل "كما روت عائشة –رضي الله عنها –عن النبي صلى الله عليه وسلم.(١٥)

وإذن فنحن من ألطاف الله أمام اختيار بعد اختيار، فاختيار خير الفرص التي تكون بين يدي المرء هو الذكاء، وهو الفقه، وهو علامة التوفيق، وأن يحسن التعامل مع هذه الفرص لانتهازها. ولو ضيق الله تعالى على عباده أمر الفرصة، فحصَرَها في باب واحد أو شكل معين لشقّ ذلك على الإنسان، لِما تتعاقب عليه من ظروف تمنعه من الإيفاء بذلك، ولقلّ مع ذلك مدركوها، وكثر مُفوتوها. وهذا مقصد لا يرضاه الشارع الرحيم سبحانه، فاقتضت حكمته جعل الأمر بخلاف ذلك، فجعل الله للفرصة أبوابا متعددة ومداخل متنوعة "فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة"(١٦) وقد يدعى أناس من هذه الأبواب كلها. وأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ منهم.(١٧)وذلك رغبة في تكثير المنتهزين، وفتح باب المنافسة للمتنافسين، وتقليل فرص الفوات على المفرطين المفوتين. ومآلها جميعها إلى فضاء الفرصة العام. وهذا مع ما فيه من اللطف والرحمة، فإن فيه قطعا للأعذار وإحكاما لحجة الله على خلقه.

وإنما أطلت في تقرير التيسير في باب العبادات والقربات، لأن أعداء الإنسانية يصرون على التجديف بعيدا عن العقل والنقل، إذ يزعمون أن التدين نقيض الفرصة، وأن العبودية لله نقيض الحرية، التي هي الفرصة بزعمهم. وهذا الاتجاه هو أخطر ما تعاني منه البشرية. وهو أوسع أبواب الهلكة، كما سيأتي تقرير ذلك.

وتأسيساً على ما سبق يجب أن ندرك جازمين ما يأتي:

أولاً: أن الفرصة وفق النظام الإلهي ليست مرادفة للمشقة أو الحرمان، كما يتخيله من لا يعرف أصول السعادة. قال تعالى:" يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا"(٢٨) (سورة النساء.) وقال تعالى:" قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"(٣٢) (سورة الأعراف).

ثانياً: أن اغتنام هذه الفرص بحقها، الذي تكفل الله بوصفه، هو-وحده-الترجمة العملية لشكرها، ودليل ذلك زيادتها واستقرارها وبركتها، وليس أي اغتنام أو انتفاع. قال سبحانه: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ"(٧)(سورة إبراهيم).

ثالثاً: أن حدود الفرصة هي كل فضاء لا يكون ضاراً في ذاته، أو قاطعاً لفرصة أعظم منه. فالطيبات طبعاً أو شرعاً هي الفرص المطلوب انتهازها، والخبائث طبعا أو شرعا هي الفرص الملغاة في القانون الإلهي، قال سبحانه: " قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (١٠٠)(سورة المائدة).

تلك هي قصة الفرصة إجمالا، أحببت أن تكون بين يدي الدراسة حتى يدرك القارئ حقيقة ما نحن بصدده، ونُحوِّم حوله. فلنبدأ الحديث عن المقصد الرئيس من البحث، وهو" الفرصة الدنيوية ".

المبحث الثاني: الفرصة الدنيوية حقيقتها وأنواعها.

المطلب الأول: المقصود بالفرصة الدنيوية.

الفرصة الدنيوية هي: ما منحه الله تعالى للإنسان في الحياة الدنيا، مما يبدو ظاهره منفصلاً عن أمر الدين، الذي هو التعبد المحض. وإن كان عند التأمل يتضح أنه ما من فرصة دنيوية إلا ولها علاقة بالفرصة الدينية، مباشرة أو غير مباشرة. ولهذا " فالعبد مأمور أن يغتنم الفرصة النافعة في النِّعم الدنيوية ليربح عندها أرباحاً عاجلة وآجلة... فلا يغبن فيها بحيث تكون نعماً حاضرة مؤقتة، بل يستخرج منها نعماً باقية وخيراً متسلسلا ونفعاً مستمراً ".(١٨)

وهذا صريح مراد الله. قال عز وجلّ: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"(٣٢).(سورة الأعراف).

وتلك -لعمر الله -هي أحسن أحوال الإنسان، أن يكون في غاية الرضا النفسي في دنياه، والتعبد المنجي في أخراه، مع غاية المحافظة على تسلسل النعيم وزيادته. ومن جيد ما قيل في هذا الباب:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل(١٩)

ولبحث الفرصة الدنيوية أهمية من جهتين، فهي هامة لذاتها، ولكونها مسرح الفرصة الدينية، كما هو ظاهر للمتأمل.

لقد منح الله الإنسان في هذه الحياة الدنيا فرصاً كثيرة، منها المحسوس (المادي) الذي يمكن إدراكه بالحواس، ومنها المعنوي غير المحسوس بذاته، وإنما يستدل عليه بالشواهد والآثار المحيطة به والناتجة عنه.

وهذه الفرص الحسية والمعنويّة، منها فرص فردية تحصل لأفراد بأعيانهم، ومنها فرص جماعية تمنح لعامة الناس أو لجماعات منهم. وهذه وتلك منها عارضة مقيدة بزمان أو مكان، ومنها متطاولة مرسلة. وسوف أسوق لهذه الفرص الدنيوية بأنواعها أمثالا وشواهد يظهر بها المقصود جليا بحول الله وقوته. ويمكننا من خلال تتبع أدلة الشرع والعقل أن نستبين حدود الفرصة الدنيوية، ومنزلتها من الفرصة في الدار الآخرة.

ولا يعزب عن البال أن ارتباط آثار الفرص الدنيوية بالفرص في الدار الآخرة من القوة والانسجام بحيث لا يستقيم لأحد أن يستقلّ بمستقبله في الدنيا عن عاقبة أمره في الآخرة، أو ينظر إلى فرص الدنيا على أنها فرص مجذوذة بلا امتداد لآثارها. ولهذا فإنه لا يمكن لأحد أن يستمتع بفرص الدنيا وفق هواه، ثم يَعبُر منها سالما إلى الدار الآخرة. ومن هنا فإنك لا تكاد تجد في القرآن حديثا عن فرصة دنيوية إلا وهي مصحوبة بأمرين أو بأحدهما:

الاول: أن تكون متلوّة غالبا، أو مسبوقة أحيانا بما يكون به حفظها أو ما يكون سببا في زوالها.قال تعالى: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" (٧) (سورة إبراهيم).

الثاني: أن تكون مصحوبة بتكليف أو مسئولية، هي بمثابة الثمن الذي يقابل منحها والاختصاص بها. قال سبحانه: "الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ"(٤١)(سورةالحج)

أما الاستمتاع بالفرصة، التي لا تساوي أكثر من (الزمن + الأشياء) فهي مصيدة المغفلين، أشباه الأنعام، قال سبحانه: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ"(١٢) (سورة محمد). ولهذا جرت

حِكمة الله أنه لا يعطي هؤلاء المغفلين كل أمانيّهم، حفظا لسموّ الحياة، وإبقاءً على النفوس الطيبة أن تُفتَن بهذه الفرص لو أعطيت هذه النفوس البهيمية سؤلها.،قال سبحانه: "وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ"(٣٥) (سورة الزخرف.) أي" أنه لولا لطف الله ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئا، لوسَّع الدنيا على الذين كفروا توسيعا عظيما، ولكن منعه من ذلك رحمتُه بعباده خوفا عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعا عاما أو خاصا لمصالحهم".[٢٠].

ولهذا كان موسى الكليم عليه الصلاة والسلام يرى في فرص الدنيا خطورة بالغة إذا كانت بيد من لا خَلاَق لهم، ليس على ذواتهم فقط، بل على عامة الناس."وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ"(٨٨) (سورة يونس)." أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيَضلون ويُضلون".[٢١]

المطلب الثاني: ما هي حقيقة الفرصة الدنيوية هل هي: نِعَمٌ مستحقة أم فُرصٌ يجب انتهازها ؟.

هذا الإنعام العام هو الأصل، ولكثرة هذه النعم واشتهارها ساد الاعتقاد بأنها نِعم مستحقة، وليست فرصا يجب انتهازها. فكانت الغفلة عن رؤيتها نعما مصاحبة لأكثر الخلق، وكان الذهول عن رؤيتها فرصا لا تدوم هو حال أكثر الناس إلا من رحم ربك، وهم أقل القليل. والله تعالى ينعى على الإنسان هذه الغفلة والذهول، ويلفت الانتباه إلى أن استقرار النعم بأنواعها لا يعني أنها حق مستحق للإنسان بلا مقابل، أو أنها لا تتحول مهما تكن الظروف، أو أنها لم يكن ممكنا أن تكون بخلاف ما هي عليه. بل إن استقرارها وكونها بأفضل حال ملائمة للإنسان هي نعمة وفرصة أخرى تستحق الشكر والاغتنام. فالليل والنهار يتعاقبان على نظام ملائم للحياة، فماذا لو تغيّر هذا النظام؟ قال سبحانه:"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"(٧٣)(سورة القصص). ونحن نشهد منة الله علينا نحن الساكنين وسط الأرض أن جعل الله الليل والنهار متقاربين، فننعم بسكون الليل ولا نتعب بطلب العيش بالنهار، أما الذين يسكنون أطراف الأرض في القطب الشمالي مثلا فيكون النهار في الصيف طويلا جدا، وعكس ذلك في الشتاء. ولا شك أن التوازن بينهما في وسط الأرض، حيث تقع بلاد أهل الإسلام هو مِنّة وفرصة، ربما لا يدركها إلا من عاش ضد تلك الحال في أطراف الأرض.

وهذا الحرث، والزرع الذي ينتج عنه، والماء العذب الذي نلتذ بشربه، والنار التي نوقد لأغراضنا المتعددة. أهي مسلمات نستحقها بمجرد وجودنا، بل حتى بمجرد بذلنا شيئا من الجهد والأخذ بالأسباب؟ لقد جرى الإلف على ذلك، فهل الأمر في حقيقته كذلك ؟ قال سبحانه: " أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ" (٧٣)(سورة الواقعة).

وقال سبحانه: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ"(٣٠).(سورة الملك) .

وغير بعيد يرينا المولى العبرة، فقد قص الله لنا نبأ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ فقال تعالى: (إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ) (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)" (سورة القلم) .

وهانحن اليوم نشهد بوادر حروب المياه، التي قد تكون أقسى من حروب كنا نظن أنها الغاية في البأساء. ربما حينها سندرك أن وفرة الماء كان أكثر من مجرد نعمة، أنه كان فرصة إذا ذهب لا يعوض بثمن، وأن ذهاب الماء يَذهب بما نحرث وما نزرع!.

بل إن خلق الإنسان بهذه الصورة الحسنة العجيبة البديعة ليس فرضا لازما، بل هو محض تكريم إلهي يمنح هذا المخلوق القدرة على الظفر بمزيد من الفرص، ويضاعف كيفية الاستمتاع بها. قال سبحانه" يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ" (٨)(سورة الانفطار). في أي صورة تخطر أو لا تخطر ببالك كان يمكن أن يكون خلقك. انظر ما حولك من المخلوقات حتى تعتبر بها، وتكف عن الغرور الذي سبق إلى نفسك، فأفسد عليها فرصة الاعتبار بخلق الإنسان، قال تعالى:"لقد خلقنا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"(٤) (سورة التين).

وقد ذكّرنا الله تعالى بهذه المنِح، وعاتبنا على قلة شكره مقابل نعمة الإيجاد، ونعمة إحسان الخلق وتسويته، وخلق الحواس. قال الله تعالى:"قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ" (٢٣) (سورة الملك)..

ومن تلك النعم ـ أيضاً ـ والتي تؤدي دور الإيناس بعد الإيجاد للإنسان نعمة الزوجة والبنين والطيبات من الرزق التي تكفل له البقاء والهناء. قال تعالى: " وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ" (٧٢)(سورة النحل).

ومن ذلك نعمة السكن واللباس اللذَين يقومان بدور الحفظ والرعاية للإنسان الذي حصلت له فرصة الإيجاد. قال تعالى: " وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ" (٨٠)(سورة النحل) .

وبالجملة فهذه النعم الحسية لا تعد ولا تحد. قال سبحانه: "وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (١٣)(سورة الجاثية)

وقال عز وجلّ: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ"(٣٤)(سورة إبراهيم)

والمقصود أننا إذا نظرنا إلى هذه النعم الدنيوية من زاوية الفرصة فيجب أن نستشعر لهذه النعم معنى آخر، وبُعداً جديداً، غير كونها مِنحاً تعطى لكل مخلوق. إننا نستشف في ثناياها المسؤولية والتبعة جنبا إلى جنب مع هذه النعم والمِنح. إنها فرص إيجاد وتمتيع دنيوي، يتفاوت فيه الناس، ويَغبِطُ، بل يحسد بعضهم بعضا على الظفر بها، لكن أكثرهم لا يتنافسون في القيام بموجبها تنافُسَهم على مجرد الحصول عليها! ولهذا فإن هذه النعم تشتمل على فرص هائلة من الخلود والتكريم والنعيم الهانئ بلا نهاية، لكل موفق بصير قد استوفى شروط الظفر بها، بتثمين هذه الفرص، والشكر لمن أنعم بها. بحيث تبدو هذه النعم الدنيوية التي وصَفَتها الآيات آنفة الذكر، وغيرها تبدو فرصا دنيوية صغيرة ضئيلة، قياساً على ما وراءها في عالم الخلود، في حين أنها تبدو غاية الفرص لكثير من الناس! أي أنها فرص باتفاق، لكنها تمتد في الزمان، وتحُلّ فيها البركات، أو تقصُر أو تنقلب نِقما في الدنيا قبل الآخرة، بحسب مواقف العباد منها. فإما منطقٌ كالذي يراه طرفة بن العبد في قوله:

فإنْ كُنْتَ لا تَسْتطيعُ دَفعَ مَنيَّتِي فَدَعْني أُبادِرُها بِمَا مَلَكَتْ يَدِي(٢٢)

أو إيثار فرصة على فرصة، كقول الحق سبحانه عن أهل الجنة: "كلوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أسلفتم فِي الْأَيَّام الخالية " (٢٤)(سورة الحاقة).

لكن لا يصح عقلا ولا شرعا أن يتبجح الإنسان ويزعم أنها مِنح لابد منها. وهذا هو ما نعنيه بالفرصة.

المطلب الثالث: الفرص الدنيوية النوعيّة.

والمقصود بالفرص النوعية هي: الفرص التي تمنح المزيدَ من الفرص، وتفتح أمام أصحابها من الأبواب ما لا يفتح عادة أمام غيرهم. وهذه الفرص الدنيوية النوعيّة تقع لآحاد أو لجماعات من الناس، سواء كانت حسية أو معنوية. مع ملاحظة أن بينها تلازما، وتأثيرُ بعضها ببعض ظاهر عند أدنى تأمل فمنها:

– نعمة الصحة، ونعمة الفراغ: قال صلى الله عليه وسلم منوهاً بهاتين النعمتين: " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ ".(٢٣).

والتنويه بذكر هذه النعم إرشاد للإنسان وتذكير له بأن ما أعطيه من تلك الأمور التي تمنحه السلامة والسّعد، وتبعده عن الأسقام والمنغصات هي فرص يجب عليه أن لا يفوتها.وقد قيل:

كل يوم تعفو الحوادث عنه فانتهز فيه فرصة الأوقات (٢٤)

بل على المرء استغلالها واستثمارها فيما يعود عليه بالنفع والخير. فالصحة وقود الإنسان، إذ بها يروح ويجيء ويتصرف، وبفقدها يفقد لذائذ كثيرة لا يعوضها شيء. فهي من النعيم المسئول عنه، كما جاء عن علي –رضي الله

عنه–في قوله تعالى:" ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ" (٨) (سورة التكاثر). قال: "هو الأمن والصحة والعافية". وقد سُمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة في مرضه وهو يقول: يا أهل النعم لا تستقلوا شيئاً من النعم مع العافية".(٢٥)

إذا ما كساك الدهر سربال صحة ولم تخل من قوتٍ يَحُلّ ويقرب

فلا تغبطن أهل الكثير فإنما على قدر ما يعطيهم الدهر يسلب (٢٦)

والفراغ الذي حُرمه أناس كثيرون، فهم في كدّ متواصل وعمل دائب، يتمنون ساعة فراغ يجدون أنفسهم خارج مشاغل الحياة وقيودها. هذه النعمة يجب الاعتراف بها فرصةً، وشكرها وفق البرنامج الإلهي للحياة. وتركُ هذه النعمة دون ملئها بعمل دنيوي نافع، أو ملئها بشيء مكروه أو محظور شرعاً هو إهدار لهذه الفرصة أو تدمير لها. وقد أثر عن عمر – رضي الله عنه – أنه قال:" إني لأكره أن أرى الرجل سبهللاً، ليس في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة".(٢٧) وعن ابن مسعود قال "إني لأمقت أن أرى الرجل فارغا لا في عمل دنيا ولا آخرة"(٢٨). ولو لم يكن في الفراغ إلا ما يحصل لصاحبه من الخمول والملل، والضياع لما بين يديه وما بعده لكفى.

والفراغ هو جزء من الوقت، والوقت هو ظرف العمر ووعاؤه. وكلما امتد العمر، زادت فسحة الوقت، وازدادت معها المكاسب أو التبعات. وفي حديث أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ "مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ" قَالَ فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ "مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ"(٢٩). فانظر كيف يبدأ الناس متساوين في الفرص عند خط البداية، ثم يفترقون في توظيفها وتثميرها، وفترة المكث فيها. فمن قنِع بفرصة الحياة والاستمتاع بها فهو وما اختار لنفسه، وسوف ينال نصيبه فيها وافيا، وليس له في الآخرة من نصيب. هذا هو قانون الفرصة. قال سبحانه:" مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (١٦) (سورة هود).فهذا الجنس من الناس أراد عملا مؤقتا، فلا ينفع إلا في ظرفه وأوانه. لأنه كما صرحت الآية "كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا" فحسب. أي: "كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها. قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئا".(٣٠)

ومن فرص الحياة فرصة الملك، كما حصلت وتحصل لكثيرين من الناس. قال تعالى مبيناً منته على بني إسرائيل:"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ".(٢٠) (سورة المائدة). وقد كان ينتظر منهم أن يقوموا في مقابل هذا النعم العظيمة والفرص الفريدة–الدينية والدنيوية –بواجب الجهاد في سبيل الله ومقاومة أعدائه. فهل قاموا بحق هذه الفرصة كما أمرهم الله في قوله:"يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ" وحذرهم تفويت الفرصة بقوله" وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ" (٢١) (سورة المائدة). ‘‘ولكنها عادة بني إسرائيل في النكوص والتلكؤ غلبت عليهم فتركوا ما كتب الله لهم بنص الآية، وارتدوا على أدبارهم فخسروا دنياهم، بما فاتهم من النصر على الأعداء وفتح بلادهم.

وخسروا آخرتهم، بما فاتهم من الثواب، وما استحقوا بمعصيتهم من العقاب. فأي فرصة ضيعوها، واستبدلوا بها فرصة وهمية دنيئة عاجلة؟ لقد تركوا الفرصة الحقيقية، واستبدلوا بها صورتها الوهمية، وهي القعود والوقاحة والغرور، قال الله عنهم: " قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ"(٢٤)(سورة المائدة).

ونعمة الملك والظهور في الأرض يتبعه عادة كثرة الأموال والأولاد والقوة والسؤدد. وكلها نعم في باطنها فرص نادرة، لأنه كان يمكن لمن مكنهم الله بالحق والعدل أن يغيروا أحوال الناس في زمانهم إلى أحسن الأحوال، إلى جانب استمتاعهم هم بلذة الملك. ولكن بالاستقراء فإن عامة الملوك والرؤساء والسلاطين والأباطرة يتخذون من الملك والسلطة–وهي الفرصة العظيمة –سلما للاستمتاع بها فيما يناقض القانون الإلهي للفرصة الدنيوية. ولهذا كَثُرَ في كتاب الله عرض هذه الفرص، ودعوة سدنتها إلى استدراك الوقت قبل الفوات، واحترام قانون انتهاز الفرص الدنيوية، وتحمل المسئولية التي لابد أن يتحملها من أُوتي مثلها. وأجد من الضرورة التمثيل بشواهد كافية تعبر عن هذه الحالة بالغة الأهمية.

١. هذا هود عليه الصلاة والسلام لا يعترض على قومه بما حازوا من فرص الدنيا، من الملك والقوة والكثرة، كل ما كان يطلب إليهم أن يقوموا بواجب هذه الفرص، وفق النظام الإلهي الذي تُمنَح هذه الفرص بموجبه.قال لهم:" أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" (١٣٥) (سورة الشعراء).

٢. وصالح عليه الصلاة والسلام قال مثل ذلك لقومه ثمود."أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ"(١٥٢) (سورة الشعراء).

٣. وهذا مؤمن آل فرعون يناشد قومه صراحة أن يتخذوا الأسباب الكفيلة بحماية منجزاتهم من الملك والقوة." يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا"(٢٩) (سورة غافر).

وقد ثبت باستقراء النصوص وشواهد الحال أن هذه الفرص العظيمة قد فرّت من بين أيدي أصحابها وهم أشد ما يكونون حرصا عليها وتشبثا بها، بسبب عدم رعاية هذه الفرص وفق القانون الرباني الذي تم عرضه عليهم. وكانت حال جميعهم كما قال سبحانه"وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ"(٥٨)٠ (سورة القصص).

وكما أخبر الله عن فرعون وملئه فقال:"فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" (٥٩) (سورة الشعراء).

هذا هو النوع السائد في أهل الملك والسلطة. ولكن الحياة لم تخل من عظماء أخذوا الفرصة بحقها، فكانوا رحمة على الناس في زمانهم. كما جرى على يد نبي الله يوسف عندما أسندت إليه وظيفة مالية وكما جرى على يد نبي الله سليمان عليه السلام من العدل، لما صار له تمكّن وقوة (٣١).

. ومنها فرصة المال، النعمة العظيمة التي يعطيها الله من يشاء، ويقدِرها على من يشاء من عباده. قال سبحانه: "إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا" (٣٠) (سورة الإسراء). وقارون كان ممن بسط الله له في المال قال تعالى: "وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ" (٧٦) (سورة القصص). وقد أمره الله بانتهازها سبيلاً إلى الآخرة، مع كامل الاستمتاع بها في الدنيا، فلم يوفق في حق نفسه إذ قَالَ: "إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي" (٧٨) (سورة القصص). وهذا الاستقلال بالفرصة وجحود مانحها، وهو الله، والعيش في كنف الغرور بالذات هي بوابات الهلكة. "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (٧٩) (سورة القصص). فهيئة قارون وأبّهته كانت أمنية أرباب الفرص الدنيوية من " الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها" (٣٢). ولا يملكون المال لاستنساخ قارونٍ آخر. أما العارفون بقيمة الفرص وإمكانية استثمارها إلى أبعد مدى فكان لهم رأي آخر! "وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ" (٨٠) (سورة القصص). يقول هؤلاء: إن الجمع بين الاستمتاع بالفرصة في الدنيا وفق قانون الله الذي منحها، وهو طلب مرضاته ورجاء ثوابه فيها هو الاختيار الصحيح، والطريق لإطالة أمدها، ليس فقط إلى نهاية المهلة في الدنيا، بل ليتصل أثر الفرصة الإيجابي بالحياة الآخرة. وإن قارون كان يمكنه أن ينال من ذلك أجرا وفيرا وحظا عظيما. أَوَلَمْ تكونوا أنتم أو غيركم ممن نصحه في ذلك، وقال له: " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (٧٧). (سورة القصص). في رؤية متوازنة لتوظيف هذه الفرصة السانحة. "فكيف تتمنون ما عنده، وقد شجبتم تصرفاته، ونهيتموه عنها، ولم ترضوْها" (٣٣). لكن هذا يحتاج إلى صبر ورويّة وبُعد نظر. وفي النهاية ظهر الصبح لذي عينين "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ" (٨١) (سورة القصص).

. ومن الفرص التي تتاح لآحاد من الخلق فرصة الجمال، وهي نعمة خَلقية عارضة، لا تلبث أن تزول بكبر السن أو طروّ العوارض المفسدة للصحة والمزاج. وقد أعطاها الله للملايين من خلقه-رجالا ونساء-ويوسف عليه السلام "قد أعطي شطر الحسن" (٣٤). فلم يجعل من هذه النعمة فرصة للزهوّ على الناس، واصطياد قلوب العذارى اللاتي يرين -عادة- في الجمال فرصة. ألم ترهن لما: "رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ" (٣١) (سورة يوسف). وقد استنفدت امرأة العزيز كل وسيلة للظفر بهذه الفرصة، ها هي تقول صراحة: "وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ" (٣٢) (سورة يوسف) كلا لم يفعل يوسف ذلك، بل دافع هذا الهاجس الشيطاني الذي استحوذ على امرأة العزيز، وكاد يغلب هؤلاء النسوة ودفع ثمن ذلك حريته "فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ" (٤٢) (سورة يوسف).

ومنها فرصة العلم والحكمة كما كانت للقمان. قال تعالى:"وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ" (١٢) (سورة لقمان). فاستخدم هذه الحكمة وهي من أنفس الفرص. في أنفع الأشياء، واختص ولده بأنفس الوصايا، التي صارت تعرف بوصايا لقمان.[٣٥].

وعلى الضد من ذلك مَن أوتي العلم والآيات فقال تعالى: "..فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ(١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا" (١٧٦) (سورة الأعراف). أي أنه كان بإمكانه أن يكون مرتفعا متساميا، دينا ودنيا، لأن:" تلك الآيات شأنها أن تكون سبباً للهداية والتزكية...وهذه عبرة للموفَّقين ليعلموا فضل الله عليهم في توفيقهم، فالمعنى: ولو شئنا لزاد في العمل بما آتيناه من الآيات فلرَفعه الله بعلمه.والرفعة مستعارة لكمال النفس وزكائها، لأن الصفات الحميدة تُخيِّل صاحبها مرتفعاً على من دونه، أي لو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلاً وزكاءً وتميزاً بالفضل"[٣٦] "وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ" فلم يرفع بهذه الفرصة رأسا، ولم ير فيها فضيلة تستحق الشكر، وامتيازا يستوجب الرعاية وتحمل المسئولية "والإخلاد هنا ركون إلى السُّفل أي تلبّس بالنقائص والمفاسد. واتباعُ الهوى ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة، على ما يدعو إليه الحق والرشد"[٣٧] "فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (١٧٦) (سورة الاعراف). ومعلوم أن العلم والحكمة وما ينشأ عنها ليست فرصا دينية تتجلى آثارها الحميدة على المرء في آخرته فقط، بل لها أحسن العواقب العاجلة، من اللذة بالمعرفة والرفعة والسؤدد وجميل الذكر ما هو معلوم بالاستقراء ومدرك بالمعايشة. ولهذا الملحظ ذكرت هذا المثال.

وهناك من الفرص الفردية في الحياة الجم الغفير، لمن تتبعها، وقد مُنِحت عبر التاريخ لخيار الخلق، ولأشرارهم، وما بين ذلك. وسيأتي من ذلك مزيد أمثال وشواهد.

. ومن الفرص الدنيوية ما حصل لطائفة أو جماعة معينة، كفرصة الإحياء بعد الموت، وهي فرصة نادرة أخبر الله تعالى عنها في كتابه "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ" (٢٤٣)٠ (سورة البقرة). وهل أعظم فضلا وأكبر فرصة من أن تعود الحياة للإنسان بعد فقدها، ويرى الإنسان الأهوال التي كان ينكرها أو يماري بها ؟ خصوصا لمن فرّوا من ديارهم حذرا من الموت إياه! في حين أن الشفاء من داء عضال، والسلامة بعد رحلة مخوفة يعد حياة جديدة في عُرف الناس ؟. "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ".

ومثلها في الندرة ما حصل لأصحاب الكهف من الإنجاء من عدوهم، وطول العمر والحفظ في النوم فقال تعالى:"وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا"(٢٥) (سورة الكهف). وقصتهم معروفة. وغير ذلك كثير.

ومن ذلك ما أعطى الله لبني إسرائيل من المِنح الدنيوية الكثيرة، كتظليلهم بالغمام من حرّ الشمس في الصحراء، وإنزال المن والسلوى"وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" (٥٧) (سورة البقرة). وبالمناسبة فقد كانت الفرص الدنيوية بين يدي بني إسرائيل كثيرة. وفي

سورة البقرة والمائدة والأعراف والإسراء وطه، منها جمّ غفير، ولكن بني إسرائيل حالة خاصة في الفساد وجحود النعم، فضرب الله عليهم الذل والمسكنة في الدنيا، وجعلها ملازمة لهم، وجعل مكانهم تحت حكم المسلمين أو تحت سلطة النصارى.[٣٨] ولا يخرجهم عن هذا الحال إلا فساد حال الناس، فهو البيئة الملائمة لعلوهم واستكبارهم، لاشتراكهم معهم حينئذ في الفسوق، فتظهر يهود على غير حقيقتهم، التي هي الذل والمسكنة الملازمة لهم فقال تعالى:"ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ " (١١٢)(سورة آل عمران).

ومن الفرص المقيدة بالمكان ما حصل لأهل سبأ فقال تعالى:"لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ"(١٥) (سورة سبأ). وفي سياق الحضّ على تقييد هذه الفرصة نكتة، حيث قابل بكلمات موجزة بين الفرصة ونظام حفظها، بطريقة الإغراء وليس بمجرد الإخبار. فاجتمع من ذلك معنىً يمكن تقريبه بالجملة التالية: كلوا من رزق الله في هذه البلدة الطيبة، واشكروا الربَّ الغفور. لأن وصف الربّ بالغفور فيه توسعة وإطماع وفتح باب للتصحيح.

وأحسن من ذلك وأعظم بركة ما اختص الله به أهل مكة من حَرَم آمن يُجبَى إليه ثمرات كل شيء.قال تعالى" أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ"(٦٧) (سورة العنكبوت). وفي آية أخرى قال سبحانه: " أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"(٥٧) (سورة القصص).

وكون هذه فرصاً لأهلها أمر ظاهر، فقد كانت جنان مملكة سبأ آية، علامة فارقة في حسنها وحبور أهلها. وكان الحرم مكرمة ومفخرة لأهله، أمنٌ ورغد عيش"أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ"(٤). سورة قريش). فهل كانت هذه الفرص كذلك في أعين أهلها؟ تشير الآيات إلى أن هذه الفرص العظيمة لم يستفد منها أهلها كما ينبغي لمثلها، أي أنهم لم يستعملوا هذه الفرص وفق القانون الإلهي للفرصة. فخربت مملكة سبأ بما أعرضوا قال سبحانه: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ" (١٦). أما مكة فقد كانت فقال تعالى:"قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (١١٢) (سورة النحل). فلم تنتقض حُرمة مكة وبركتها، ولكن عُوقِب أهلها بما يستحقون.

ومن الفرص ما تعرض للمرء بغير سعي منه. وقد يكون مَنحُها إكراما أو ابتلاء أو تلميحا بالخروج من وضع غير سليم. ويكون بالإمكان انتهازها. وتعظم هذه الفرص بقدر ما يكون المرء بحاجة ماسة لها.

ومن هذا قوله تعالى في شأن مريم عليها السلام: "فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا"(٢٥) (سورة مريم). فهذا قد حصل لمريم فجأة ومن غير توقع، وهي في لحظة مخاض، اللحظة الأصعب في حياة المرأة، فانتهزت مريم هذا النداء، وصدّقت به، فكان لها ما قصّت الآيات آنفا.فحصل لها طمأنينة"من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب الهنيء". [٣٩].

وفي مقابل تلك الحال ما جرى لابن نوح – عليه الصلاة والسلام- لحظة الطوفان، وقد عرض عليه نوح فرصة النجاة بالركوب معه في السفينة، فاختار الابن الجبل الشامخ، ولم يستفد من هذه الفرصة السانحة الفاصلة قال تعالى:"وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ" (٤٣) (سورة هود).

ومن هذا الباب ما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ "بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى وَعِزَّتِكَ وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ".(٤٠) فوقوع الجراد على أيوب لم يكن معلوماً لأيوب من قبل، وإنما عرض له حال اغتساله.

وقوله عليه الصلاة والسلام وقد وعظ النساء يوماً "ما منكن امرأة تقدم بين يديها ثلاثة من ولدها إلا كانوا لها حجابا من النار قالت امرأة واثنين قال واثنين (٤١)". ومعلوم أن المرأة لا تقدم ولدها راغبة، ولكنه ابتلاء تؤجر عليه. وهذا شأن المصائب عامة، إذا احتسب أهلها انقلبت في حقهم فرصا يرتقون بها منازل عند الله.

ومن الفرص المتكرر مجيئها، والتي يكون لها وقت معلوم، ويكون الإنسان على علم بها وبوقتها، ويمكنه انتهازها فرصة الاكتساب في موسم الحج. قال تعالى:" لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ"(١٩٨) (سورة البقرة). والفضل هو طلب الكسب والتجارة المباحة في هذا الموسم، في قول عامة المفسرين. (٤٢)

ومن الأمثال السائرة في ذلك: إذا وافقك خيرٌ فوافقه. وهذا النوع من الفرص كثير، وقلما يوجد شخص أو جماعة أو أمة إلا وسنحت لهم منها أشياء.

وآثار هذه الفرص الدنيوية إذا أخذت بحقها، وفق النظام الإلهي للفرصة عظيمة ملموسة. وجِماعها الحياة الطيبة، ومظاهرها الأمن ورغد العيش والطمأنينة والبركات في الأموال والأوقات، والسلامة النسبية (٤٣) من الفتن والآفات مدة العيش المقدر في هذه الدنيا. وجامع شملها الشكر، وشكر كل فرصة بحسبها.وإذا وقع من أضداد ذلك ما يكدّر، فهو بسبب عدم أخذ بعض أفراد المجتمع هذه الفرص الدنيوية بحقها، كما أمر الله. وكلما كثر عدد المفرطين بحق الله فيما منحهم من هذه الفرص، كلما أصبحت الحياة أكثر مشقة، رغم كثرة الأشياء في أيدي الناس. تأمل إن شئت قوله سبحانه: "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"(٤١) (سورة الروم). والقانون الإلهي في ذلك لا يتبدل ولا يتخلف، شاهده قوله تعالى: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" (٧) (سورة إبراهيم). وقوله سبحانه: "وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا"(١٢٤) (سورة طه). وقوله جلّ وعزّ: "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ"(٥٨) (سورة القصص). وغيرها من الآيات.

خلاصة الفرص الدنيوية.

ومما سبق يتضح جلياً أن الفرص الدنيوية هي:

فرص تتاح للإنسان وتنتهز في الحياة، يتم الاستمتاع بها، مع أنواع الآفات، لمن قطع الصلة بواهبها، واستخدمَها وفق هواه، لا بحسب القانون الإلهي للفرصة.

وهي فرص دنيوية مباركة، يتم الاستمتاع بها في الدنيا، وتكون بركتها متصلة بما بعد هذه الحياة، لمن أخذها بحقها.

وهي . أعني فرص الحياة . تُعطى لهؤلاء وهؤلاء، لكن على ما وصفت لك. قال تعالى:"مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا"(٢٠)(سورة الإسراء٩ وقوله سبحانه:"قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"(٣٢)(سورة الأعراف٩. لا يستثنى من ذلك فرصة -أياً كانت-إلا من جعل على نفسه سلطاناً بالحرمان من شيء كان مباحا، قال سبحانه:"فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ"(١٦٠) (سورة النساء).

ويحسن وقد طوّفنا حول الفرصة الدنيوية، وتبيّنا حدودها ومنزلتها في القرآن الكريم أن نُلِمّ ولو بإشارة قبل أن نغادر صفحات هذا البحث بالفرصة الدينية-رغم وضوحها-فماذا نعني بالفرصة الدينية؟

المبحث الثالث: الفرص الدينية.

الفرص الدينية هي عامة الفرص التي تتهيأ للإنسان مما يكون ملحظ الفرصة فيها أخروياً لا دنيوياً، وإن كان يكون لها أحسن الأثر في الدنيا كما أسلفنا في الفرصة الدنيوية أن أخذها بحقها في الدنيا يرشح لامتداد آثارها الحسنة في الدار الآخرة.

وبناء على ذلك فإن من ترك فرصة دنيوية مأذوناً فيها، رجاء ثوابٍ أعظم في الدار الآخرة، فهذا قد قدّم فرصة دينية وإن فوّت مقابلها فرصة دنيوية، كمن ترك الاستمتاع ببعض الطيبات زهداً وتخففًا، دون إعنات للنفس أو اعتقاد تحريمه، أو ترك حظه من الدنيا لصالح غيره تقربا إلى الله أو لإصلاح ذات البين. ونحو ذلك. فإن الله يعوضه خيراً مما ترك. وقد جاء في الأثر عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له في دينه ودنياه"[٤٤] وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة حين خُيِّر فاختار الله والدار الآخرة، إذ"جلس على المنبر فقال: عبدٌ خيرّه الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده. فبكى أبو بكر وبكى، فقال فديناك بآبائنا وأمهاتنا. قال[٤٥] فكان رسول الله صلى الله عليه و سلم هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا به"[٤٦] فرفع الله له ذكره في الدنيا، وخصه بأعلى المنازل في الآخرة. وتلك عادة الله الجارية وفق حكمته، فله الحمد والمنة.

وكما اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند الله، فقد اختارت نساؤه الله ورسوله لما خيّرهن بين الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله."يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا"(٢٩) (سورة الأحزاب). فاخترن الله ورسوله[٤٧]. رضي الله عنهن أجمعين.

وإن مما ينبغي التنبه له، وعض النواجذ عليه أن الفرصة الدينية هي الفرصة الأهم، وإدراكها هو المقصود الأعظم في الحياة، وفواتها هو الخسارة الأكبر في الدارين. بل إن الفرصة الدنيوية ما هي إلا وسيلة ومتمم لها، وفواتها خسارته محدودة، بل إن فواتها غالبا ما يكون إما بسبب التقصير في شكرها، والشكر عبادة. أو أن فواتها هو سلامة للمرء من تبعاتها التي قد لا يطيق الوفاء بها، وهذه سلامة. ثم إن تعويض من فاتته فرص الدنيا مرجوّ، وقد يكون ذلك بمثلها أو بخير منها. وهذا كله لا يعني التقليل من شأن الفرص الدنيوية، ولكن الغرض هو إنزالها منزلتها بإزاء الفرصة الدينية. قال تعالى:"قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ"(١٥)(سورة الزمر).

وإذا كانت الفرص الدنيوية يترتب عليها من اللوازم العملية ما يكون برهان شكرها، ومبرر استحقاقها، فإن ذلك وأعظم منه لازم للفرصة الدينية، لِما تقرر من أن عائد الفرصة كلما عظُم كانت تبعات شكره على قدره. ومعلوم أن عوائد فرص الآخرة لا تقاس بمنافع فرص الدنيا. فلا جرم ستكون تبعات شكرها على قدرها."انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا"(٢١)(سورة الإسراء) وهذا من تمام عدل الله وعظيم حكمته، ولهذا لا تكاد تجد فرصة دينية تُمنَح لمخلوق إلا وهي متلوة أو مسبوقة بلوازمها، حتى لا يتسرب إلى نفسٍ، مهما بلغت مكانتها أن قد تنال من فرص الآخرة شيئا بلا استحقاق، يقتضيه قانون الفرصة، كما ظن ذلك جهلة أهل الكتاب، ومن سبقهم ومن جاء بعدهم من جهلة الأمم."وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ"(١٨) (سورة المائدة).وقال سبحانه"وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"(١١٢)(سورة البقرة).وقال جل وعزّ:"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ"(١١)(سورة الأحقاف)

وهذا الوهم الذي استولى على أكثر الخلق هو مناقض ومصادم لقانون الفرصة، دينية كانت أو دنيوية.قال سبحانه:"لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا"(١٢٤) (سورة النساء).

وهذا باب عظيم، والغرض هاهنا أن أذكر منه جُملاً تدل على ما وراءها.

ومن الفرص الدينية، بل في مقدمتها فرصة الاصطفاء والاختصاص، كاصطفاء الرسل. قال تعالى: "اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ"٧٥ الحج. وقال سبحانه"إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ"(٣٣) (سورة آل عمران). وكاصطفاء الأولياء، ومن ذلك اصطفاء مريم عليها السلام. قال تعالى: "يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ"(٤٢) (سورة آل عمران). وكاختصاص نساء النبي صلى الله عليه وسلم بمزيد من الفضل، قال تعالى: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً "٣٢(سورة الأحزاب).

ومن ذلك انتهاز فرصة التصديق بما جاءت به الرسل والانحياز إليهم دون تردد أو ممانعة. وتلخص هذه المساجلة بين فريقين من قوم صالح عليه السلام الموقفَ من هذه الفرصة العظيمة. قال تعالى" قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦)(سورة الأعراف). فالفريقان، الذين استضعفوا والذين استكبروا أمام بيّنة واحدة، أما المستضعفون بفئاتهم فقد كانوا في ظروف متماثلة تماما، أي أنهم أمام الفرصة سواء. ومع ذلك فقد انقسموا فريقين متقابلين إلى حد التضاد! وكانت مبادرة فريق من المستضعفين إلى الإيمان بنبي الله صالح عليه الصلاة والسلام كانت انتهازا شبه جماعي لفرصة سانحة، عادةً ما يلحقها التشويش والتشويه، والتخويف منها ومن أتباعها، فكان لهم حسن العاقبة في الدنيا، أن نجَوا من عقوبة أحاطت ببني جلدتهم، وأقرانهم حتى في المستوى والاعتبار الاجتماعي. "فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ" (٧٩)(سورة الأعراف). وهذا مشهد تكرر كثيرا مع أقوام الأنبياء، لكن القرآن يسجل هذه المحاورة المباشرة بين مكونات المجتمع، وليس بين المجتمع وبين شخص النبي، في قضية هي الأخطر، لأن لها ما بعدها في مسألة السِّلم الاجتماعي والوحدة الوطنية.

ومن الفرص الدينية فرصة إدراك الوالدين أو أحدهما، وبلوغهما أو أحدهما الكبر وأنت حي: قال سبحانه: "إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا"(٢٤) (سورة الإسراء). ومن فوّت هذه الفرصة فقد أرغم أنفه وقد يُحرم مستقبله في الآخرة، قال صلى الله عليه وسلم:"رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ". قِيلَ مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ "مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ"(٤٨)

ومثل ذلك من أضاع فرصة الأوقات الفاضلة كشهر رمضان، أو ترك الصلاة على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم حين يذكر اسمه. واقرأ بإمعان ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فقال "آمين آمين آمين ". قيل يا رسول الله إنك صعدت المنبر فقلت آمين آمين آمين فقال "إن جبريل عليه السلام أتاني فقال من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت آمين. ومن أدرك أبويه

أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت آمين. ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار قل آمين فقلت آمين"[٤٩]

وأكتفي بهذه الأمثال على طبيعة الفرصة الدينية وهي متنوعة في مواردها، وليس الغرض التوسع في هذا الباب. ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وإذا كان الحديث عن الفرصة، وقد عرفت أخي طبيعة الفرصة، أنها لا تَنتظِر، بل تُقتنَص، فإنني أقول لنفسي ولك: إن فاتت على أحدٍ منا فرصةٌ، أيُّ فرصة فإننا نحن الذين فرّطنا في حق أنفسنا، بتفويتها، وإن"سنته قد اقتضت أن من لا يأخذ بأسباب الهدى لا يهتدي، ومن لا يفتح بصيرته على النور لا يراه، ومن يعطل مداركه لا ينتفع بوظيفتها، فتكون نهايته إلى الضلال، مهما تكن الآيات والبينات، لأنه لا يُفيد شيئاً من الآيات والبينات"(٥٠). وفي المقابل فإن من يتعرض للفرصة، مريدا لها بصدق، فإن الله يزيده توفيقاً وعوناً. قال تعالى: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ "(٦٩)الروم.

بادر إذا حاجة في وقتها عرضت فللحوائج أوقات وساعات
إن أمكنت فرصة فانهض لها عجلا ولا تأخّر فللتأخير آفات[٥١]

وإن مما يعزّي المقصِّر – وكلنا كذلك–أن المناسبات والمواقف التي تبدو فيها الفرصة كحسناء تتعرض لخطابها كثيرة ومتنوعة، ولكن مما يجب الحذر منع – مع ذلك – أن مواقف الحسرة والتلوّم والتمني ممن فاتتهم هذه الفرصة أو تلك غير قليل. هذه هي طبيعة الفرص. كثيرة لمن تعرض لها، سَهلٌ فِرارها لمن سوّف فيها. ومن أرادها غير ذلك فهو لم يدرك طبيعة الحياة وحكمتها، ولم يعرف علاقتها الوثقى بالدار الآخرة، ووظيفة الإنسان فيها. ولعل الآيات التالية من سورة الزمر تجمع بين غاية الإغراء بالتوبة، وهي فرصة تتكرر بعد كل ذنب. وغاية التخويف من تفويتها، وهي حال أكثر الخلق.قال سبحانه:"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ" (٥٩)(سورة الزمر).

وعند هذه الآية أضع القلم، ولم أبلغ نهمة النفس في هذا الموضوع، ولكن لكل شيء نهاية،

وإن قِمَطرا من حقٍ لكثير، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

خاتمة البحث

وقبل أن أغمد القلم أضع بين يديك خلاصة تذكرك بأهم ما قيدته من خطرات حول الفرصة، وأُجملها في النقاط التالية.

١. الفرصة هي الحياة، والحياة هي أعظم فرصة، فمنذ عقل الإنسان وجرى عليه قلم التكليف فهو في فرصة. والناس في انتهازها كما بين الثرى والثريا "كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها".

٢. لم يَرد لفظ الفرصة في القرآن الكريم، ولكن معناها متضمن في آياته، ومفرداتها مبثوثة في آياته وسوره، وقد جمعت من ذلك ما رأيتَه مبثوثا في ثنايا البحث، وقد استخدمتُ لفظ الفرصة لأنه معنى معروف، ولفظ مشوق مرغوب.

٣. الدين والصحة والشباب والمال والأمن والمعرفة والجاه والحسب والفراغ والعقل والنوم واليقظة والليل والنهار والشتاء والصيف... وعشرات غيرها، كل واحدة منها تنطوي على فرص لا تتناهى، والناس في معرفتها والانتفاع بها متفاوتون شتى.

٤. الفرص مطروحة على قارعة الطريق، تعرض نفسها لخطابها، وليس صحيحا أنها قليلة أو مخصوصة، أو صعبة المنال. بل كل امرئ تتهيأ له مئات الفرص بحسب حاله وقدراته، دون تكلف.

٥. الفرص بأسبابها المجعولة لها–شرعا وقدرا–والظفر بها مؤكد عندما يأخذ المرء بأسبابها، ويأتي البيوت من أبوابها، ولذا فهي لا تورث ولا توهب، كما أنها لا تحجز أو تمنع بالقوة والتحكم، وما يكون ظاهره بخلاف ذلك فهي عوارض فرص لا فرصا حقيقية، ولهذا فإنها لا تلبث أن تزول وتتحول، وربما انقلبت محنا على أصحابها.

٦. كل فرصة يقابلها تبعة ومسئولية تناسبها. ولهذا فالفراغ والجِدَة مثلا هي ظروف ملائمة وفرص إذا انتفع بها المرء، وليست فرصاً لكل أحد. واتّباع الأهواء وترك العمل واطِّراح الشرع. ليست فرصا، كون أصحابها في حِلّ من الالتزام بشيء، لأن عواقب ذلك خسران وفساد لحال أصحابه في دنياهم غالبا، وفي أخراهم يقينا. وما أفضى إلى الفساد والخسران لا يوصف بأنه فرصة، ولا صاحبها بأنه ذكي.

٧. الفرص ليست هي ما تحصل عليه مما ينفعك –دينا أو دنيا فقط –بل هي أيضا ما تستطيع التخلص منه مما يضرك في العاجل أو الآجل، وأكثر الخلق لا ينظرون إلى الفرص إلا من باب واحد.

٨. الفرص كثيرة لمن تعرض لها، سهل فرارها لمن سوّف فيها، ومن أرادها غير ذلك فهو لم يدرك طبيعة الحياة وحكمتها، ولم يعرف علاقتها الوثقى بالدار الآخرة، ووظيفة الإنسان فيها.

أسأل الله بمنه وفضله أن يجمع لنا بين حُسنى الدارين، وأن تكون طيبات الدنيا موصولة بطيبات الآخرة. آمين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الهوامش

(١) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ٤ / ٤٨٨، وابن منظور: لسان العرب ٧ / ٦٤، والزبيدي: تاج العروس ١٨ / ٦٦ ، جميعهم مادة " فرص ".

(٢) البجيرمي: حاشية البجيرمي على المنهج ٤ / ٢٢٣.

(٣) سنن الدار قطني.باب الرضاع ٢٣٤/١٠. وسنن البيهقي. باب ما لم يذكر تحريمه. ١٢/١٠ وقال هذا موقوف. قال الحافظ ابن عساكر ٨٥/٢ هذا حديث غريب. ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة. وأورده النووي في الأذكار، والأربعين النووية [ح ٣٠] وحسنه. ووافقه ابن رجب في شرح: جامع العلوم والحكم. وصححه ابن الصلاح. وحسنه ابن تيمية بشواهده في كتاب الإيمان ٤٤/١.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة، طبعة الدار السلفية، الهند، ٧٧/٧. ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما، وصححه الألباني، في صحيح الترغيب والترهيب برقم:٣٣٥٥.

(٥) صحيح مسلم: باب الحث على الصدقة ٢٨٥/٣. وروى البخاري نحوه في"باب إثم من دعا إلى ضلالة، أو سن سنة سيئة" ٣٠٢/١٣

(٦) صحيح مسلم: باب" من سن سنة حسنة أو سيئة ". ٦١/٨

(٧) صحيح البخاري: باب " قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أعلمكم بالله " ١/ ٤٢.

(٨) صحيح البخاري مع فتح الباري: باب الجلوس على الحصير ونحوه. ٢٠٠/٧

(٩) صحيح البخاري: باب " الدين يسر " ١/ ٢٣.

(١٠) صحيح البخاريباب " من نذر المشي إلى الكعبة "، ٢ / ٦٥٩.

(١١) السابق: باب " حق الأهل في الصوم " ٢ / ٦٩٨.

(١٢) تفسير ابن كثير، دار طيبة، الطبعة الثانية،٨، ٦١/١٤٢٠ ٠

(١٣) صحيح البخاري: باب " القصد والمداومة على العمل " ٥ / ٢٣٧٣.

(١٤) صحيح مسلم/ باب النهي عن صوم الدهر.١٦٢/٢

(١٥) صحيح مسلم/ باب فضيلة العمل الدائم ٥٤٠/١

(١٦) صحيح البخاري: باب الريان للصائمين/٦٧١/٢

(١٧) السابق: الجزء والصفحة.

(١٨) الدين الصحيح يحل جميع المشاكل، للعلامة: عبد الرحمن بن سعدي، ١٥/١.

(١٩) خزانة الأدب وغاية الإرب، لابن حجة الحموي، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٤م، ١٣١/١.

(٢٠) تفسير السعدي، طبعة مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ، ٧٦٥/١.

(٢١) تفسير السعدي، ٣٧٢/١.

(٢٢) خزانة الأدب، ٤٢١/١.

(٢٣) سنن الترمذي، باب "الصحة والفراغ نعمتان" ٤ / ٥٥٠.وصححه الألباني، في صحيح السنن برقم ٢٣٠٤

(٢٤) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور الثعالبي، دار المعارف، القاهرة، ص٦٨٢.

(٢٥) المستطرف في كل فن مستظرف، لشهاب الدين الأبشيهي، عالم الكتب، بيروت، ط ١٤١٩هـ،٢/ ٧٣.

(٢٦) السابق / نفس الصفحة.

(٢٧) إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت،٢ / ٦٢.

(٢٨) المعجم الكبير، للإمام الطبراني، مكتبة دار العلوم، الموصل،١٤٠٤هـ، ١٠٣/٩

(٢٩) رواه الإمام أحمد في المسند، من حديث أبي بكرة ٤٩/٥. والترمذي ح رقم٢٣٣٠، وقال هذا حديث حسن صحيح. قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث حسن. مسند الصحابة في الكتب الستة ٩٠/٣٧

(٣٠) تفسير السعدي: ١/ ٨٧٣.

(٣١) وقصة يوسف مشهورة مفصلة في سورة يوسف، وقصة سليمان مع الهدهد ومع ملكة سبأ مذكورة بالتفصيل في سورة النمل من الآية ١٥ حتى الآية ٤٤

(٣٢) تفسير السعدي: ٦٢٣/١.

(٣٣) تفسير محمد متولي الشعراوي، (الخواطر) مطابع أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٧م، ٧٧/١٨

(٣٤) صحيح مسلم: باب الإسراء برسول الله ١٤٥/١.

(٣٥) وهي مسرودة تباعا في سبع آيات من الآية ١٣ — ١٩ من سورة لقمان.

(٣٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية،١٩٨٤م، ٦/ ٨٨

(٣٧) السابق: الجزء والصفحة.

(٣٨) تفسير السعدي عند الآية، ١٤٣/١ ، وتفسير ابن كثير ن ١٠٤/٢.

(٣٩) تفسير السعدي، ١/ ٤٩٢.

(٤٠) صحيح البخاري/ باب من اغتسل عريانا وحده ٢٨٩/١

(٤١) متفق عليه. البخاري ٥٠/١ برقم ١٠١، ومسلم ٢٠٢٨/٤ برقم ٢٦٣٣.

(٤٢) انظر: أحكام القرآن للقرطبي وتفسير ابن كثير، وغيرهما عند الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

(٤٣) لأن السلامة المطلقة لا تكاد تحصل لحيٍّ. فإما أن يصاب بسبب فساد شؤون دنياه، أو بسبب فساد أمره في الدين، أو بسببهما.

(٤٤) حلية الأولياء ١٩٦/٢ .وقال: هذا حديث غريب من حديث الزهري لم نكتبه إلا من هذا الوجه. وحكم الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير عليه بالوضع. ٣٢٥/٢٤.ح/١١٨٢٥. وهذا الأثر وإن كان في سنده مقال إلا أن معناه صحيح، ويشهد لمعناه استقراء الأحوال، وما تواتر من فضل الله وأنه شكور يجزي بالحسنة خيرا منها. ولهذا درج العلماء على الاستشهاد به، ومنهم الألباني الذي حكم عليه بالوضع. انظر مثلا: حجاب المرأة ٤٦/١

(٤٥) القائل هو أبو سعيد الخدري راوي الحديث.

(٤٦) متفق عليه وهذا لفظ مسلم. صحيح مسلم: باب من فضائل أبي بكر ١٨٥٤/٤

(٤٧) مسند الحميدي: أحاديث عائشة أم المؤمنين ١١٥/١

(٤٨) صحيح مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-. باب رغم أنف من أدرك أبويه ٥/٨

(٤٩) ابن حبان (٣٤٨/٦) برقم (٢٠٢٨) في صحيحه واللفظ له. صحيح الترغيب والترهيب. كتاب الدعاء ١٣٨/٢

(٥٠) في ظلال القرآن، سيد قطب،١٨٢٠/٣.

(٥١) السحر الحلال: حرف التاء ٣٣/١

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد: دار المعرفة. بيروت

٣. اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني. تحقيق: د. ناصر العقل. توزيع وزارة الشؤون الإسلامية، ط: السابعة. ١٤١٩هـ.

٤. الدين الصحيح يحل جميع المشاكل: عبد الرحمن بن ناصر السعدي

٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي.الدار التونسية طبعة عام ١٩٨٤م.

٦. الجامع الصحيح: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي. تحقيق: أحمد شاكر. دار الكتب العلمية، بيروت.

٧. الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي. دار الشعب، القاهرة.

٨. السحر الحلال في الحكم والأمثال: أحمد الهاشمي: دار الكتب العلمية . بيروت

٩. السنن الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي تحقيق: محمد عبد القادر عطا دار الباز،مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

١٠. المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى.

١١. المستطرف في كل فن مستظرف: أبي الفتح محمد بن أحمد الأبشيهي: دار الكتب العلمية ـ بيروت

١٢. المصنف: أبو بكر عبد الله بن أبي شيبة. دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ. وهي المعتمدة.

١٣. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي. مكتبة الزهراء، الموصل، ط: الثانية، ١٤٠٤هـ.

١٤. تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي. تحقيق: مجموعة من المحققين. دار الهداية.

١٥. تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي: دار طيبة للنشر والتوزيع: الثانية ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩ م

١٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي

١٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: دار الكتاب العربي ـ بيروت: الرابعة، ١٤٠٥هـ

١٨. خزانة الأدب وغاية الأرب: تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي: دار ومكتبة الهلال ـ بيروت

١٩. سنن الدارقطني: أبو عمر علي بن عمر الدارقطني. تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني. دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ.

٢٠. صحيح الإمام البخاري. تحقيق: د. مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير، بيروت. ط: الثالثة، ١٤٠٥هـ.

٢١. صحيح الإمام مسلم. دار ابن حزم، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٦هـ.

٢٢. صحيح ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة. تحقيق: د/ محمد مصطفى الأعظمي. المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ.

٢٣. فى ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم: دار الشروق ـ القاهرة

٢٤. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي. دار صادر، بيروت، ط: الأولى.

٢٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل. المشرف العام على الطباعة: د/ عبد الله التركي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية، ١٤٢٩هـ.

٢٦. مسند الحميدي: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي

٢٧. معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، ط: الأولى، ١٤١١هـ.